

بوقت الحكمة من يشاء من يؤمنها الحكمة قد أوتي
خبراً كثيراً وما يدكر إلا أوولاً الألباب

الله

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فينبهون ألسنتهم
أو تلك الذين هم الله وأولئك هم أوولاً الألباب

١٣١٥

(قال عليه الصلاة والسلام: إن للاسلام صوى ودهنارة كمنار الطريق)

(مصر - غرة جمادى الثانية سنة ١٣٢٣ - ٢ أغسطس (آب) سنة ١٩٠٥)

تمت ملخص سيرة الاستاذ الامام

دخوله في الماسونية - من التهديد

كان السيد جمال الدين قد أخذ على نفسه العهد والمواثيق أن يعمل
عملاً عظيماً ينهض بدولة إسلامية نهوضاً يعيد للاسلام مجده وكان مضطراً
بذلك إلا أنه كان مستعجلاً يريد أن يعمل هذا العمل العظيم ويرى أثر نجاحه
وعمرة غراسه في حياته لذلك جاءه من طريق الحكومة والسلطة وتوسل
إليه بالمعلم فأتخذله في مصر تلاميذ بدأ يقرأ لهم كتب أصول الدين والفلسفة
حتى إذا ما وثق بهم مزج لهم السياسة بالمعلم وخاف استبداد اسماعيل باشا
أن يحول بينهم وبين ما يشتهون فانتظم مع مرديته في سمط الجمعية الماسونية
وكان بأمجادهم رئيس حفل صرن فيه تلامذته على الخطابة والبحث في حياة
الامم وموتها ونهوض الدول وسقوطها وقد دخل في هذا الحفل شريف
باشا وبطرس باشا غالي وكثيرون من الكبراء والأفكاء وكان توفيق باشا

ولي عهد الخديوية مشايخا للسيد ومخضلة ومكان صاحب الترجمة من السيد مكانه المعلوم فكان دخوله في الماسونية متما لثريته وتلميذه ومصلحة بينه وبين توفيق باشا وكثير من رجال مصر وسببا لبحثه في أحوال الحكومة المصرية ووقوفه على نقائصها ومساوئها وتوجهه إلى السعي في إصلاحها ومهدا له الطريق للعمل الذي قام به قبل الثورة وبعدها على ما تقدمه هنا بالإيجاز وفي التاريخ الذي سنولاه للنقيد بالتفصيل . وقبل أن ننقل من هذا التمهيد نقول ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ترك الماسونية من زمن طويل وقد أكثر أبناءها من دعوته إلى مخالفتها بسبب رجوعه من النفي إلى مصر فلم يجب وأهدوا إليه وساما فلم يقبله . وقد سأله عن حقيقته مرة فقال ان عملها في البلاد التي وجدت فيها للعمل قد انتهى وهو مقاومة سلطة الملوك والباباوات الذين كانوا يحاربون العلم والحرية وهو عمل عظيم كان ركناً من أركان ارتقاء أوربا وانما يحافظون عليها الآن كما يحافظون على الآثار القديمة ويرونها جمجمة أدبية قيد التعارف بين الناس . وأخبرني بأن دخوله مع السيد فيها كان لفرض سياسي اجتماعي وانه قدر كما من سنين وان يعود إليها وانها ابتدأت في مصر ابتداء لم يكن من قبل . وأخبرني أنه أرشد مرة أحد ولاة بيروت إلى إبطال محفل ماسوني علم انه يكيد للدولة المليية بإيماز بعض الدول الأوروبية فهاب ذلك الوالي وخن أنه فوق قدرته ولكن التقيد رحمه الله تعالى هداه السبيل إلى ذلك وشد من عزيمته ففعل ، بل كان مبدأ انسحابه مع السيد جمال الدين من الماسونية عند ما جاء إلى مصر رئيس الشرق الأعظم الانكليزي وهو يومئذولي المهدي للدولة الانكليزية فاجتمعت المحافل الماسونية حفاوة به وذكر أحد رؤسائها ولي المهدي هذا اللقب فاعترض

السيد جمال الدين وقال انه لا يسمع بأن يحتفل بأحد على أنه ولي العهد للدولة من الدول لاسيما الدولة الانكليزية التي من وصفها كيت وكيت وليس لها فضل على الجمية الخ ما قاله ولا أذكر منه الا مثل هذا الاجمال فردد عليه بعض رؤساء المحافظين وبعد مناقشة انسحب من الماسونية هو وخواص صريديه . والا رأى بعض علماء الأزهر بعد ذلك ترقى الاستاذ الامام وتبوذ في الحكومة توهموا ان ذلك بمساعدة الجمية له فدخل كثيرون منهم فيها ومنهم من دخل بدعوة بعض أصحابه من أهلها ولم يدخل أحد منهم لأجل عمل يفيد الأمة والبلاد الا جماعة السيد جمال الدين

إصلاح في مدارس الحكومة والأزهر

إذا تمهد هذا فنقول : قد عين الفقيه في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دارالعلوم وللعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية فكان يدرس فيها مع الاستمرار على التدريس في الجامع الأزهر فبدأ في دارالعلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون لانها مقدمة للتاريخ وإنما غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ فكان يطبق ما فيها من الكلام من نهوض الدول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمتة ويبين أسباب ضعفها والوسائل التي تذهب به وتبنيدها إليها ما تقدمت من عجزها ومجدها . وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والمصول في ذلك فكان كل واحد يشتر بروح جديد يدب في هيكله ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شأن أمتة . وقد كتب رحمه تعالى في ذلك العهد كتابا حائلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه وبين ما نسخته طبيعة الاجتماع في هذا العصر

من أحكام الممران في المصور الفاربة . وكان في مدرسة الألسن آية
البيان في إحياء اللغة العربية وإشراع الطريق اللاحب في التلميم ، والخروج
بالطلاب من ما أرق المهمل القديم ، ثم ان دروسه في الأزهر كانت بناء جديدا
للمقائد على أسس البراهين القطعية ، وتجديدا لما بلي من سائر العلوم المتلية ،
وكانت حلقة درسه في الأزهر واسمة جدا تحيط بأعمدة كثيرة وكان يقرأ في
بيته درسا في الاخلاق والسياسة لطائفة من المجاورين قرأ في ذلك كتاب
تهذيب الاخلاق لابن مسكويه الرازي . فكان ذلك سبب طبعه المرة الاولى
وقرأ كتاب (كزوا) في السياسة ولا أدري أنه أم لا

كان القصد من هذه الدروس تكوين نابة جديدة من السكان في
مصر تحمي اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، وتقوم عوج الحكومة المصرية ،
فقد كانت هذه الحكومة لذلك المهمل قد رثت ووهت ، ووقعت في التزع
أو اوشكت ، عظم فيها سلطان الاجانب ، وأحاطت بها سيول الفتن من
كل جانب ، ومنيت الامة التي تمدها بالتربة والمسغبة ، وضربت عليها الذلة
والمسكنة ، ذلك بما اسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس ، وتمذيب
الاجساد والنفوس ، فاما آثار اسماعيل باشا في البلاد فلا يزال الكهول
والاشياخ يمدنون بها الشبان والقلمان ، واماماهما السيد جمال الدين ومريده
الشيخ محمد عبده من السمي في إصلاح الحكومة في الحال ، وتربية الرجال
لأجل الاستقبال ، فلا يعرفه الا من كان يعمل مههما ، ويتلقى عنهما ،
ومن شاء من أهل هذه الديار ، أن يروي شيئا من تلك الأخبار ، فليراجع
من بقي من تلامذتهما الاخيار ، كالشيخ عبند الكريم سلمان وسعد بك
زغلول و ابراهيم بك اللقاني وحنفي بك ناصف ومحمد بك صالح وسلطان

افندي محمد وغيرهم، ولو طال العهد على عملهما لثم لهما المراد ولما حدثت الثورة العراقية، ولكن خاتمها الزمان، وما قدر كان،

كان من عمل السيد جمال الدين ومريديه أن اتصلوا بولي العهد توفيق باشا الخديو السابق واتفقوا معه على تغيير شكل الحكومة واصلاح شؤونها فكان يعد السيد والشيخ من أقوى أنصاره وأوليائه ولما انتهى الحيف والجور والخلل بخلع اسماعيل باشا ونصب توفيق باشا أميراً على مصر في رجب سنة ١٢٩٦ طفق السيد جمال الدين يطالبه بإنجاز وعوده وأولها إنشاء مجلس نواب للحكومة وجعل الوزارة مسئولة وظهرت طلائع الاصلاح على يده ولكن وجد من الواشين من غير قلبه على السيد والشيخ وأوهمه لهما يسعيان في تقييد سلطته أو إزالتها فأمر بنفي السيد فأخذ من داره ليلا في عربة مقلعة وليس عليه غير قميص واحد وأرسل في قطار خاص الى السويس ومن هناك ذهب الى الهند وأمر بزل الشيخ من مدرسة دار العلوم ومدرسة الالسن وبأن يقيم في قريته (محلة نصر) لا يفارقها الى بلدة أخرى وخاصة عاصمة البلاد والمدن الكبيرة كالاسكندرية وغيرها . وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٩٦

عمله في المطبوعات والحكومة

وفي أواسط سنة ١٢٩٧ توجهت رعاية رياض باشا الى تحسين كتابة الجريدة الرسمية وجعلها مفيدة مرغوبا فيها من الناس فاستشار الشيخ حسين المرصفي ومحمود باشا سامي البارودي كلا علي حديثه فأشارا برأي واحد كأنهما توأصيا به وهو جعل الشيخ محمد عبده محررا فيها ففعل بهد ان استرضى توفيق باشا فصدر الامر العالي بتعيينه محررا ثالثا وانتظر رياض باشا

مدة من الزمن فلم ير تغييرا بحمد . ثم إنه كتب من الاسكندرية بأمر قلم المطبوعات في مصر بأن تكتب مقالة في مالية مصر تم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له قانون التصفية وان تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان قد بقي له يوم واحد خاص بكتاب الجريدة وحاروا وأرسلوا الى صاحب الترجمة من أحضره من الأزهر وكافوه بكتابة المقالة فكتبها في مجلته ونشرت فلما قرأها رياض باشا أعجب بها أشد الإعجاب وسأل عن كاتبها فقيل له هو فلان فزاد عجبه أن وجد في الأزهر شاب واقف على تاريخ المالية في مصر عارف بجميع شؤونها قادر على بيان ذلك والافصاح عنه . وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في اصلاح الجريدة فبين له رأيه في تقرير ضاف فأمر بأن تواف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير وان توضع لأتمه لقم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك وعين الفقيه رئيسا لقم تحرير الجريدة الرسمية العربية فاختار لها من المحررين المهرة الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ محمد زغلول (هو سيد بك زغلول المستشار بحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ سيد وفا (رحمه الله) وهم ممن كانوا يحضرون دروسه ودروس السيد جمال الدين وبرعوا في الكتابة معه على يد السيد . ثم ماذا كان من شأنه ، كان مالم يكن يخطر على قلب بشر وهو أن رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيمننا على الحكومة والامة ينتقد الاعمال والاقوال ، وينتقل بالناس من حال الى حال ،

وضع لأتمه أوفاتونا لقم المطبوعات أجازته وأنفذه رياض باشا فكان

من أحكامه ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها ومجالها في العاصمة وغيرها ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات مخبرة بما سمعت فأتمت وما شرعت فيه وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج أحكامها ، وان لادارة المطبوعات الحق في انتقاد كل ما رواه متقدما من الاعمال ، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في القطر المصري وان تبحث عن حقيقة ما نقوله في رجال الحكومة وأعمالها وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنه اذا نشر في بعض الجرائد ما رواه ادارة المطبوعات فيه فإن لها ان تسأل المصلحة أو الادارة التي يندب اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية ان ام يكن ما نشر مستندا الى النظارة والامسألتها هي مباشرة فان كان حقا ما نشر في الجريدة فتوجب على الحكومة ، وواخذة من نسب اليه الذنب وذكر ذلك في الجريدة الرسمية وان كان كذبا طواب مدير الجريدة باثباته والا ائذو واذا تكرر إنذار جريدة ثلاث مرات يمنع إصدارها ألبتة أو الى الأجل الذي تراه الادارة . وان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية أن يجعل فيها قسما غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الادبية (ويدخل في الادبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) وقد أجاز هذا القانون واقطعه رياض باشا لئلا من العناية بالاصلاح ولتقت بكفاءة صاحب الترجمة وغيرته وإخلاصه في الخدمة العامة وإن في هذا لبرة لأولي الالباب صاحب عمامة أزهرية يدخل في حكومة مطلقة بعيدة في أعمالها عن رجال العلم والدين فيسرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصالح لهم ما يكتبون ، ويرشدتهم الى اصلاح العمل فيما يعملون ، ثم يسرف من نافذة اخرى على الأمة فيقوم من اخلاصها ،

وینصلح ما فسد من عاداتها، بالوعظ الصحيح، والارشاد الحقیقی، ویبطل من نافذة نائلة على الجرائد العربية فیعلمها حسن التحرير وربها على الصدق فی القول ویجعل للصادق منها سلطانا نصیرا، وتأثیرا، أثورا، یالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطراييش، وهابها التيجان والبرانيطه، ونذكر هنا على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام فی ذلك للهدى أن یستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش فأبى عليهم ذلك فأرادوا الاستعانة علیه برياض باشا فأوهوه انه یميل الى لبس الطربوش ولكنه لا یلبسه الا بأمره فسأله فظهر له انه لا یرغب فی ترك زيه وأنه اذا ألزمه بذلك إلزاما فإنه یمثل مادام فی عمل الحكومة فاذا خرج من عمله عاد الى عمامته فقال رياض باشا كلا اني لا أرضى لك الطربوش لاني أحب أن یعلم الناس انه یوجد تحت العمام من المتول والافهام مثل ما یوجد تحت الطراييش وغيرها. فله در رياض باشا وجزاه الله ظییرا فإنه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكن له فی أرض مصر وهو الذي كان السبب فی ظهور مواهب الشيخ محمد عبده فی أول نشأته حتى انه حکمه فی انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال التوسطين فیها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد ان اجتهد أصحابها فی انتقاء المحررين وقد أنذر عامله الله تعالى بأحسانه مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته اذا لم یختر لها محررا صحیح العبارة فی مدة عینها ففعل ذلك ذلك المدير. ولم یکن یأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة، وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة أن نه شأن المجیدین عنهم وقتحت مدارس ليلية

لتعليم المقصرين وتبرح نعمده الله برحمته بقراءة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة القلمية الحقيقية في مصر فالفضل فيها للسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى

وأما انتقاد أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريمها الحق والمثل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة وقد عني الفقيد يومئذ بنفسه في انتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والترية في مدارسها ثم تمثيل فضاق ذرع ناظر المعارف لذلك العهد فلاذ رياض باشا كما من الجريدة الرسمية فقال له رياض باشا ان كان ما كتب حقا فلا وجه للشكوى منه وان كان باطلا فمليك أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وقلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها فانه لا يقصد بما يكتب فيها الا المصلحة فسكت الناظر واجما

عمله في مجلس المعارف الاعلى

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم ان ما يكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر الفقيد في ذلك وفي وسائل تلافيه فعرض عليه ان يكون للمعارف مجلس اعلى يكون له الحكم الفصل في ادارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذا لما يقرره فاتخذ ذلك رياض باشا وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقترحات النافعة ولولا كثرة ما جعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما . صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وقد تألفت منه لجنة للنظر في اصلاح طرق التعليم والترية في جميع المدارس وكان الفقيد الكاتب العربي جلساتها وكان

له فيها الآراء الصحيحة والحجج القوية على ما يطلب من الإصلاح
اذكر من اقتراحه شيئا سمعته ولا ادعي اني احطت به كل الاحاطة
وهو انه اقترح مرة على المجلس ان يطلب من الحكومة مائة عظيم من
المال يوزع على المدارس الاجنبية مكافأة لها على خدمة العلم ونشره في
البلاد فهش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء
الوطنيين ووافق الآخرون الذين عرفوا ما يرمى اليه المقترح فتقرر بأكثر
الآراء . ثم انه اقترح في جلسة أخرى أن يقرر المجلس وجوب جعل
المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف ليعلم مفتشو النظارة في نظام
التعليم فيها فهش الاعضاء الوطنيين لهذا الاقتراح وعارض فيه الاجانب
فأقام عليهم الحجة بأن جميع الدول الأوربية تراقب جميع المدارس التي
تأخذ منها إعانة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة أن تعلم انها
لا تصح دراستها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول
حق وانما نعارض الآن في هذا الاقتراح لاننا نعلم أن المعارف في مصر منعطة
وانما اجتمعتا لتفريقها وأرباب المدارس الاجنبية مستقون في العلوم والمعارف
ولا يصلح السافل للإشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على
المرتقي . فقال النقيب رحمه الله تعالى كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت
ورفائك من أعضاء مجلس المعارف المصري فاذا كان الطلب في نفسه حقا
وعدلا فلا يصح أن يرفض لأن المعارف العمومية لم ترتق في البلاد المصرية
لان عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لا ينافي وجود أفراد من
الموظفين في النظارة من الأوربيين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوروبا
العالية يصلحون لتفتيش المدارس الاجنبية : فهضت حجته وتقرر اقتراحه .

وانها الامنية يتحز على ذكرها السلطان والامير ، ويسيل لتوجهها العاب
 الناظر والوزير ، ولكن نقف دونها الآمال حسرى ، وتنحني امامها العقول
 حدى ، وتكبو فى غاياتها جياذ السياسة ، ويصفر عن الطمع فيها أهل
 الرياضة ، ثم تسمو اليها تلك الهمة ، وتمنزلها من أعلى القمة ، ولولا الفتنة
 المراية لجعل لنا ذلك المضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ،
 على ما كان لهم فى ذلك الزمان ، من النفوذ والسلطان ، فكيف لو كان
 ذا منصب أعلى ، ونفوذ أقوى ،

(دعوته نظارة الاوقاف الى الاصلاح)

كان لنظارة الأوقاف من حظ إرشاده تقضنا الله بهلومه وآثاره نحو
 ما كان لسائر النظارات ومصالح الحكومة وكان من تأثير إخلاصه أن
 عزمت هذه النظارة يومئذ على عمل جليل وهو أن تصل دار الكتب المصرية
 (الكتبخانه) ومدرسة دار العلوم بالأزهر وتوسع دائرة المدرسة بحيث
 تدرس فيها جميع العلوم وينبع عدد طلابها ٥٠٠ طالب ويكون المتخرجون
 فيها هم المقدمين فى أعمال الحكومة ولو تم هذا لكانت الأوقاف ينبوع
 الحياة لهذه البلاد . ولكن حال دون هذا ودون ما كانت الحكومة
 شرعت فيه من الاصلاح الادارى والقضائى والمسكري تلك الفتنة الشؤمة

ثورة العربية

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت فى أواخر إمارة إسماعيل باشا
 فى ظلمات بحر من الظلم لحي يقشاه موج من نوره موج من نوره سحاب
 ظلمات بعضها فوق بعض . ظلمة الجور والظلم وظلمة الفقر والفاقة وظلمة
 الشرور وفساد الاخلاق والآداب وظلمة محكم الأجانب وسيطرتهم

على الحكومة بحجة المراقبة المالية للمالهم من الديون على اسماعيل باشا و ساطتهم على الرعية التي أغرقها في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى، وكثرة الضرب وسوء الجزا، . وكان يظهر من عمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمت جذوة منه في الازهر ففتح الشيخ عيش نغمة أخذتها ولكنها ما أطفأها ثم كان هذا النور يظهر في مهاد خاصة فتمشوا اليه الابصار، ويسير في ضوءه من سار، حتى أشرق وتلا في ادارة المطبوعات، وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ما كان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأمرهم الجديد (توفيق باشا) لفته عن أموالهم، ورغبته في إصلاح حالهم، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بناجم الفتنة قد نجم، وطائر الشر قد وقع، إذ هب ضباط الجيش من المصريين يطالبون بحقوقهم، وأيديهم على مقابض سيوفهم، وتلك هي مايسمونه بالثورة العرابية

لا يمتينا في هذا المقام خبر هذه الثورة ولا تاريخها وانما يعيننا أن نبين في تاريخ أستاذنا انه كان كارها لها منددا بزعمائها وهو بينهم لأنه كان يعلم انها تحبط عمله الذي مضى فيه، وكل إصلاح عمله الحكومة أو تنويه، وانها تمهد للأجانب سبيل الاستيلاء على البلاد بل كان هو واستاده يتوقسان ذلك من سيرة اسماعيل باشا وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد وحاول أن يحول دون ما يخشى ويتوقع بالسمي في الاصلاح فليس ما نقوله عن أستاذنا من أنه كان لا يجهل خطر الثورة بالذات والرجم بالغيب، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان .

كان ينتقد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في اندتهم وسماهم
وبالكتابة في الجريدة الرسمية حتى أرسل اليه عرابي مرة من تهدهده ويقول
انك أهنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش ورؤسائه . أرسل
اليه ضابطين الى تلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما بالضرب
اذا هما لم يخرججا . وكان عرابي وأعوانه يتفضون من المجلس يدخل فيه
زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جالس
يتكلمون في الاستبداد والحرية والحكومة المطلقة والحكومة النيابية
الدستورية واتفقوا على أن الأمن على الارواح والاموال ، وصعود الأمة
في صراحي الكمال ، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال ، وان هذا
التحويل قد آن في مصر أو انه ، وأدركها إبانه ، فعارض الاستاذ في ذلك
وقال ان أول ما يجب ان يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون
بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة ، مؤبدة بالمزينة ، وهمل الحكومة على العدل
والاصلاح ومنه تمويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها
إياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديریات والمحافظات ، وليس من
الحكمة أن تعطى الرعية مالم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف
بماله قبل بلوغ سن الرشد وكما التربية المؤهنة والمعدة للتصرف المنفرد.
فطن عرابي بمجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية وكان مما احتج به
التقيد عليهما أن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤونها لما
كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى فيطالب به رؤساء العسكرية الآن غير
مشروع لانه ليس تصوير الاستعداد الأمة ومطلبها ويخشى ان يجر ههنا
الشغب على البلاد احتلالاً أجنبياً يسجل على مسيبه اللعنة الى يوم القيامة ،

عند ذلك أبدى المجادل نواجهذه لغير تبسم وقال أرجو أن لا استحق
 هذه اللقمة وإس الجند هو يطالب مجلس النواب ولكنه مؤيد لطاب أعيان
 البلاد ووجهائها، ثم أسر إلى الاستاذ ان سلطان باشا جمع الأعيان لهذا الطلب،
 وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد المنار الرابع ردنا على صحافي عرض بأن
 الاستاذ الامام سكان من أركان الثورة العراقية نذكره هنا وهو

« عرض هذا الانفجاني المتذمع بذكر الفتنة العراقية وباليتة كان
 يعرف حقيقة الفتنة العراقية ويعرف المهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال
 فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرف وإذا أحب فليسأل المارفين ، وليراجع
 كتابة الكاتبين ، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين ،
 يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي
 وشوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها نلى حين ترجمه
 فرائض تصر الطديوية من عرابي وحين يرى هذا المنتقد الشجاع ان
 رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابي ، مكرها ويسمع من أتباعه ما
 يكره ، وتظهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة
 العراقية عند ما ألزموه بحضور مجتمهم وان يقوم فيهم خطيبا . ماذا كان
 موضوع خطبته ؟

« كان موضوعها بيان تاريخي بأن المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع
 أن القيام على الحكومات الاستبدادية وتقيدها ساطها وإلزامها بالشورى
 وبالمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا نشأ فيهم
 التعليم الصحيح والتربية النافذة وصار لهم رأي عام ، وانهم يهتدي في أمة من
 أهم الارض ان الخواص والاعنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم

بساير الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف ومشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع؟ (قل) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الانساني أم بلغت الفضيلة فيكم حدًا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتكم من روية وبصيرة أن تشاركوا ساير أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصماليك حبا بالعدالة والانسانية؟ أم تسировون الى حيث لا تدرون، وتعملون مالا تعلمون؟ وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطفقوا ينفضون رءوسهم وملا على أفهام الآخرين

«هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمع لرؤساء المرابيين ولو كانوا يفتلون لرجعوا به الى رشدهم ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما تستعد الى الآن، ولهذا الاستاذ ان يشمل بقول ابن الفارض رحمه الله تعالى

ونرج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الاهواء صمت فأصمت
هذاما كتبناه منذ أربع سنوات كاملة . ولا حاجة الى كثرة الشواهد والوقائع في هذه السيرة المختصرة

ولا يلتبس على القارىء معارضة الاستاذ الامام للمرابين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بصد أساذه وأول من تلقى ذلك عنه فانه كان يحاول أن يكون ذلك برضى الامبر وحكومته لا بالخروج عليه وأن يكون في البداية من قبيل التحرين والتعويد مقرونا بالتربية والتعليم الى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها وتصل من طريق الحكمة الى رشدها وقد رأيت كيف كان التوسل منه ، فيها

وروينا ذلك عنه، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالصلاح عندهم هب الفتنة، وولجأ إلى
 قصر الامارة أو نيفاً ظلل العزلة، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله
 بين المصلحتين، وقد قال لعرايبي مراراً كثيرة عليك بالهدوء والسكينة وأنا اضمن
 لك أكثر مما تطلب في بضع سنين ونهاه بعد ذلك عن محاربة الانكيز
 انتهت الثورة بالاحتلال الانكيزي وقبض على زعمائها وأتوا في
 غيابة السجن ليحاكموا فيقبلوا تفتيلاً . وجعل التفتيد منهم لاصراً ما صدر
 الاصر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكيزي وعين لهم محام انكيزي
 جاءهم فسمع منهم وكانهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم كل يكتب عن نفسه، ولا
 يظمن في غيره، فلم يرفى كتابة أحد ما تقوم به الحجة، وتقدم به التهمة، ويدل
 على النقص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الأسباب والنتائج .
 الا ما كتبه وما قاله فتقيدنا بالامس، وقد زاد المحامي على بيان ذلك ان
 اشمره باخفايا، وأطلعه على ما في زوايا القصر من الخبايا، كقوله ان الحاشية
 خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا
 بأن يفعل كيت وكيت . وأعطاه من المستندات ما يتلب وجه المسألة،
 ولا ترضى إظهاره السياسة، ومنشرح ذلك في تاريخ التفتيد بالتفصيل . حكم
 على عرايبي ورفاقه المبروفين بالنفي الابدي وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث
 سنين وثلاثة أشهر، وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل المنفيين حاشا الامام فانه
 كان رحمة له ونعمة عليه ومزيدا في كمال علمه وتربيته وسببا لنشر علمه في بلاد
 كثيرة . ذلك انه كان من أهل الاخلاص والتقوى فجعل الله تعالى له
 من كل ضيق فرجا ومخرجا بل بدل له النعمة نعمة والسنة حسنة فكان
 مبدأ حياة جديدة له نبيها فيما يلي هذا